الناس مع التكاليف الشرعية

كتبه محمد الصغير الجمعة ٢٧ محرم ١٤٤٣

لم يزل وحي الله نور يستضيء به المؤمن في دربه, فيريه حقيقة الطريق وحقيقة الناس من حوله, فهم بين متولٍ عن أمر الله وهم الأكثرية, وبين صابر مقدم محتسب لا يضره تخذيل المرجفين وهم قليل من قليل.

من ذلك النور ما قص الله علينا من نبإ بني إسرائيل في قوله:

‹ أَلَم تَرَ إِلَى المَلَإِ مِن بَني إِسرائيلَ مِن بَعدِ موسى إِذ قالوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابعَث لَنا مَلِكًا نُقاتِل في سَبيلِ اللَّهِ قالَ هَل عَسَيتُم إِن كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتالُ أَلّا تُقاتِلوا قالوا وَما لَنا أَلّا نُقاتِلَ في سَبيلِ اللَّهِ وَقَد أُخرِجنا مِن دِيارِنا وَأَبنائِنا فَلَمّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتالُ تَوَلَّوا إِلّا قَليلًا مِنهُم وَاللَّهُ عَليمٌ بِالظّالِمينَ۝وَقالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ اللَّهَ قَد بَعَثَ لَكُم طالوتَ مَلِكًا قالوا أَنّى يَكونُ لَهُ المُلكُ عَلَينا وَنَحنُ أَحَقُّ بِالمُلكِ مِنهُ وَلَم يُؤتَ سَعَةً مِنَ المالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصطَفاهُ عَلَيكُم وَزادَهُ بَسطَةً فِي العِلمِ وَالجِسمِ وَاللَّهُ يُؤتي مُلكَهُ مَن يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَليمٌ۝وَقالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ آيَةَ مُلكِهِ أَن يَأتِيَكُمُ التّابوتُ فيهِ سَكينَةٌ مِن رَبِّكُم وَبَقِيَّةٌ مِمّا تَرَكَ آلُ موسى وَآلُ هارونَ تَحمِلُهُ المَلائِكَةُ إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لَكُم إِن كُنتُم مُؤمِنينَ۝فَلَمّا فَصَلَ طالوتُ بِالجُنودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبتَليكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنهُ فَلَيسَ مِنّي وَمَن لَم يَطعَمهُ فَإِنَّهُ مِنّي إِلّا مَنِ اغتَرَفَ غُرفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبوا مِنهُ إِلّا قَليلًا مِنهُم فَلَمّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذينَ آمَنوا مَعَهُ قالوا لا طاقَةَ لَنَا اليَومَ بِجالوتَ وَجُنودِهِ قالَ الَّذينَ يَظُنّونَ أَنَّهُم مُلاقُو اللَّهِ كَم مِن فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصّابِرينَ۝وَلَمّا بَرَزوا لِجالوتَ وَجُنودِهِ قالوا رَبَّنا أَفرِغ عَلَينا صَبرًا وَثَبِّت أَقدامَنا وَانصُرنا عَلَى القَومِ الكافِرينَ۝فَهَزَموهُم بِإِذنِ اللَّهِ وَقَتَلَ داوودُ جالوتَ وَآتاهُ اللَّهُ المُلكَ وَالحِكمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشاءُ وَلَولا دَفعُ اللَّهِ النّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَفَسَدَتِ الأَرضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذو فَضلٍ عَلَى العالَمينَ ›

البقرة: ٢٤٦-٢٥١

فتعال نعش هذه الآيات نستنير بنورها في حياتنا اليوم, فهي وإن كانت تتحدث عن ملإ بني إسرائيل في حقبة من تاريخهم, إلا إنها متجددة في كل زمان.

فهي أنزلت إلينا لنهتدي بها وليست للتسلية، معاذ الله، فمن بلاغة القرآن التعليم بالمثال العملي، فهذا الدين دين عملي وليس نظري.

تبدأ هذه الآيات بقوله سبحانه:

أَلَم تَرَ

وهو سؤال لغرض التنبيه على ما سيأتي الحديث عنه، والتنبيه في القرآن حين يأتي فهو لكي يدعو القارئ إلى تدبر ما سيليه وأخذ الدروس والعبر منه.

بدأ ربنا عز وجل بالحديث عن الملإ من بني إسرائيل

المَلَإِ مِن بَني إِسرائيلَ مِن بَعدِ موسى

ليشير إلى حقبة تاريخية كان فيها بني إسرائيل ضعفاء مشتتين في الأرض لا حول لهم ولا قوة.

هذا الملأ كان يمكن أن يبقى كما هو دون أن يُذكر لو أنهم بقوا تحت الذل، مثلهم كمثل كثير من الشعوب التي ألفت الذل والضعف ولم يتحدث عنها القرآن، ولكنهم أرادوا التغيير - بغض النظر عن مدى صدق هذه الإرادة - فأخبر الله عنهم في قوله:

إِذ قالوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابعَث لَنا مَلِكًا نُقاتِل في سَبيلِ اللَّهِ

أول خطوة في الخروج من حالة الضعف والذلة هي تنصيب ملك يوحدهم، فهم ما داموا مشتتين بلا رأس لن تكون لهم قوة أبدا، فمن سنن الله أن القوة مع الجماعة والضعف مع التفرقة، ولذلك من أراد إضعاف خصمه عليه بالمقولة الشهيرة

فرق تسد

لأنه ما دام خصمك متماسكا سيظل أقوى بلا شك.

إن الذين يشترطون وجود القوة لإقامة الجماعة وبيعة الأمير يخالفون سنن الله الكونية، فلا قوة مع الفرقة، ومن ثم هذه القوة التي يشترطون لن تتحقق أبدا

أي أنهم بذلك يسعون في بقاء المسلمين مشتتين ضعفاء ولو لم يشعروا لأنهم اشترطوا شرطا في الجماعة يستحيل تحقيقه لمخالفته لسنن الله سبحانه.

بنو إسرائيل كانوا يعلمون أنه لا سبيل للخروج مما هم فيه سوى القتال في سبيل الله، والقتال لا يمكن أن يكون دون قائد يقود الجنود، ولذلك في المعارك يحرص كل خصم على قتل قائد خصمه حتى يتمكن من الفوز في المعركة.

لأن قوة جيش الخصم إنما هي باجتماعهم تحت قائدهم يوجههم كجسد واحد.

بعد طلبهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله، أكد عليهم نبيهم

قالَ هَل عَسَيتُم إِن كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتالُ أَلّا تُقاتِلوا

فالقتال كره للنفس البشرية لما فيه من مشقة، ونبي بني إسرائيل يعرفهم حق المعرفة، لذلك أراد التوثق من جديتهم في طلبهم، وكان جوابهم مشجعا صادقا من حيث الفحوى

قالوا وَما لَنا أَلّا نُقاتِلَ في سَبيلِ اللَّهِ وَقَد أُخرِجنا مِن دِيارِنا وَأَبنائِنا

نعم هذا الجواب صحيح، فالجهاد شرع أول ما شرع لنصرة المستضعفين، يقول ربنا عز وجل:

﴿ وَما لَكُم لا تُقاتِلونَ في سَبيلِ اللَّهِ وَالمُستَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلدانِ الَّذينَ يَقولونَ رَبَّنا أَخرِجنا مِن هذِهِ القَريَةِ الظّالِمِ أَهلُها وَاجعَل لَنا مِن لَدُنكَ وَلِيًّا وَاجعَل لَنا مِن لَدُنكَ نَصيرًا ﴾

النساء: ٧٥

فنصرة المستضعفين من آكد واجبات الدين لها يشرع القتال في سبيل الله، فلا يجب أن يكون هناك سلطان تخضع له الناس غير سلطان الله سبحانه، ومن ثم قتال من يستضعف الناس هو قتال في سبيل الله.

بعد جواب بني إسرائيل السابق المشجع نتوقع أنه عندما يكتب عليهم القتال يفرحوا لأنهم أخيرا سوف يخرجون من الذل الذي هم فيه، إلى عزة الجهاد في سبيل الله، فهل كان ذلك فعلا؟

للأسف كان العكس تماما فقد قال ربنا عز وجل عنهم

فَلَمّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتالُ تَوَلَّوا إِلّا قَليلًا مِنهُم وَاللَّهُ عَليمٌ بِالظّالِمينَ

نعم لقد تولوا واتضح أن كل تلك الشعارات البراقة

ابعَث لَنا مَلِكًا نُقاتِل في سَبيلِ اللَّهِ

وَما لَنا أَلّا نُقاتِلَ في سَبيلِ اللَّهِ وَقَد أُخرِجنا مِن دِيارِنا وَأَبنائِنا

تحتها سراب, فقد تولوا إلا قليلا منهم, مما يعني أن الهوة واسعة جدا بين النظري وبين التطبيقي

وأن أغلب الناس يسقط عند مجرد التكليف فهو غير مستعد حتى للمحاولة.

قد تقول هذا حال بني إسرائيل الذي تعودوا الغدر والكذب, أما نحن فلا, فنحن خير أمة أخرجت للناس.

وساعتها سأقول لك على رسلك وتعال بنا ننظر واقعنا الذي نعيشه لنرى هل تولينا كما تولوا أم لا؟

أنا هنا لا أخاطب عن الغالبية الساحقة من الأمة المشركة, وإنما أخاطب الثلة القليلة التي تحاول اتباع الوحي.

كلنا حين تقرأ السيرة النبوية نتأثر, ونحب الصحابة, وربما انهمرت عيوننا بالبكاء عند قراءة ظروف صعبة مر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم.

كلنا يكره الكفار والمنافقين ويرى أنهم كانوا على باطل وأن الصحابة على حق.

كل ما سبق لا يختلف في شيء عن شعارات بني إسرائيل والدليل أننا غير مستعدين لخوض تجربة الصحابة من جديد مع أن الظروف هي نفس الظروف

فالقرآن هو هو لم يتغير

والسنة هي هي لم تتغير

والكفار هم هم لم يتغيروا

فلماذا الإعراض عن عيش نفس التجربة بحلوها ومرها؟

في الواقع لا جواب, تماما كما هي الحال مع بني إسرائيل لما تولوا؟

لا جواب سوى اتباع الهوى والخوف من تحمل تبعات الرسالة الشاقة على النفس, لذلك أغلبنا يتولى عند التكليف لأنه رافض للتكليف, ويغلف رفضه بأعذار واهية

مثل نحن مستضعفون وكأن الصحابة في مكة لم يكونوا مستضعفين؟!

ونعوذ بالله من الخذلان ولا حول ولاقوة إلا بالله.

سقطت الأكثرية وآثرت الدنيا وبقت الأقلية تغربل بغربال الابتلاء حتى يفرز الله المؤمنين الصادقين

وَقالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ اللَّهَ قَد بَعَثَ لَكُم طالوتَ مَلِكًا

المفروض أن يحمد من تبقى منهم الله, فقد استجاب لدعائهم وبعث لهم ملكا كما طلبوا, ولكن الظاهر أن حتى الذين بقوا ولم يتولوا إنما بقوا حياء وليس صدقا فقد قال ربنا عز وجل عنهم

قالوا أَنّى يَكونُ لَهُ المُلكُ عَلَينا وَنَحنُ أَحَقُّ بِالمُلكِ مِنهُ وَلَم يُؤتَ سَعَةً مِنَ المالِ

وهنا أتوقف مع قوله:

قالوا

إجماع غير مخروق باستثناء, فهو لم يقل قال أكثرهم أو قالوا جميعا إلا قليل منهم, بل كلهم:

قالوا أَنّى يَكونُ لَهُ المُلكُ عَلَينا وَنَحنُ أَحَقُّ بِالمُلكِ مِنهُ وَلَم يُؤتَ سَعَةً مِنَ المالِ

اعتراض على من بعثه الله ملكا عليهم - والعياذ بالله من الاعتراض على شرع الله - والسبب الحسد

وَنَحنُ أَحَقُّ بِالمُلكِ مِنهُ

نعم الحسد والعياذ بالله من أمراض القلوب التي تفتك بها, فأول جريمة كانت حسدا, فقد حسد إبليس أبانا

وثاني جريمة كانت حسدا أيضا حين قتل ابن آدم أخاه حسدا.

إن مشكلة هذا الداء أنه يعمي صاحبه عن الحق والرشاد, ففي قصة ابني آدم أعمى الحسد بصر القاتل عن الحق والرشاد, وهو الذي كان يتقرب إلى الله قبل أن يدخل الحسد في قلبه

وكذلك إبليس كان عابدا لله فلما تملكه الحسد أعمى الله بصيرته فتجرأ على معصية الله والعياذ بالله

كذلك ملأ بني إسرائيل أعماهم حسد طالوت فتجاسروا على الاعتراض على أمر الله والعياذ بالله, وبدأوا بالبحث عن تبرير لحسدهم فقالوا

وَلَم يُؤتَ سَعَةً مِنَ المالِ

وهو تبرير واه فالملك لا علاقة له بالمال وإنما بالعلم والجسم بما فيه العقل الرشيد, ولذلك قال لهم نبيهم:

قالَ إِنَّ اللَّهَ اصطَفاهُ عَلَيكُم وَزادَهُ بَسطَةً فِي العِلمِ وَالجِسمِ وَاللَّهُ يُؤتي مُلكَهُ مَن يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَليمٌ

ثم بين أن من يستحق الملك بحق هو يقود الناس بوحي الله عز وجل, فالناس سواء الملك أو الرعية إنما يتبعون الوحي فهو مقياس الحق الذي لا يتغير

وَقالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ آيَةَ مُلكِهِ أَن يَأتِيَكُمُ التّابوتُ فيهِ سَكينَةٌ مِن رَبِّكُم وَبَقِيَّةٌ مِمّا تَرَكَ آلُ موسى وَآلُ هارونَ تَحمِلُهُ المَلائِكَةُ إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لَكُم إِن كُنتُم مُؤمِنينَ

وهنا لابد من الوقوف مع شرط الإيمان هذا, فالمؤمن لا يحكم على الناس انطلاقا من هواه أو تصوراته وإنما بمقدار التزامها بالوحي, فالوحي هو ميزانه الذي لا يحابي أحدا

فهو مع الأمير ما دام الأمير متبعا للوحي, فإذا تولى الأمير عن الوحي, تولى عنه فالمتبوع إنما هو الوحي دوما.

***

انتهى النظري, وسقط من سقط, وبقي من بقي, وبدأ الجد والعمل, وقرب الهدف الذي كان مطلبهم في بداية الأمر

فَلَمّا فَصَلَ طالوتُ بِالجُنودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبتَليكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنهُ فَلَيسَ مِنّي وَمَن لَم يَطعَمهُ فَإِنَّهُ مِنّي إِلّا مَنِ اغتَرَفَ غُرفَةً بِيَدِهِ

إنه ابتلاء الصبر والانضباط, فلا يمكن أبدا تحقيق النصر بغير الانضباط والصبر.

ويتمثل الانضباط في الطاعة العمياء للأوامر ولو لم تبدوا منطقية

جنود عطشون, ونهر متدفق, فلماذا يمنعون من شربه؟

الهدف ليس منعهم بحد ذاته بقدر ما هو امتحان لتنفيذهم للأوامر مهما كانت شاقة على النفس

والصبر على العطش وشهوة النفس في شرب الماء البارد.

لنعلم أن جيل النصر هو الجيل المنضبط الصبور

أظهر الامتحان أن الغالبية الساحقة من الجنود غير مؤمنة لأنها عصت الأمر وفشلت في الامتحان ولم ينجح إلى فئة قليلة استحقت اسم المؤمنين

فَشَرِبوا مِنهُ إِلّا قَليلًا مِنهُم فَلَمّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذينَ آمَنوا مَعَهُ

فطوال هذه القصة لم يصفهم الله عز وجل بالإيمان إلا بعد هذا الابتلاء, ليعلم أن الإيمان هو الطاعة العملية للأوامر الربانية مهما كانت شاقة, وما سواه ليس بإيمان وصاحبه لا يستحق اسم المؤمن.

هذه الطائفة المؤمنة القليلة التي تميزت بعد عدة امتحانات ليست على درجة واحدة فغالبيتها تتأثر بما يشاهد من أسباب مادية فتؤثر على قراراته

فَلَمّا جاوَزَهُ هُوَ وَالَّذينَ آمَنوا مَعَهُ قالوا لا طاقَةَ لَنَا اليَومَ بِجالوتَ وَجُنودِهِ

وبعضهم بلغ من اليقين بالله ما يجعله لا يرى تأثيرا إلا لله سبحانه وتعالى

قالَ الَّذينَ يَظُنّونَ أَنَّهُم مُلاقُو اللَّهِ كَم مِن فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصّابِرينَ

هذه الفئة على قلتها هي مفتاح الثبات في الجند, لأنهم من يرفع معنويات الجند ويجعلونهم يتعلقون بالله فتقوى عزائمهم, ولذلك واصلوا المسير جميعا وتغلب الخائفون على خوفهم واتوكلوا على ربهم واستعصموا به, فكان من شأنهم

وَلَمّا بَرَزوا لِجالوتَ وَجُنودِهِ قالوا رَبَّنا أَفرِغ عَلَينا صَبرًا وَثَبِّت أَقدامَنا وَانصُرنا عَلَى القَومِ الكافِرينَ۝فَهَزَموهُم بِإِذنِ اللَّهِ وَقَتَلَ داوودُ جالوتَ وَآتاهُ اللَّهُ المُلكَ وَالحِكمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمّا يَشاءُ وَلَولا دَفعُ اللَّهِ النّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَفَسَدَتِ الأَرضُ وَلٰكِنَّ اللَّهَ ذو فَضلٍ عَلَى العالَمينَ

وتحقق النصر لما تعلقت القلوب بالله وحده.

إن هذه الآيات بينت لنا مراتب الناس مع التكاليف الربانية, فمنهم المتولي الرافض للتكليف ابتداء

وفيهم القابل للتكليف باللسان الرافض له بقلبه لاعتراضه على حكم الله

وفيهم القابل للتكليف نظريا الضعيف عن تطبيقه عمليا, وهم مع من سبقه من اقسام لا يوصفون بالإيمان

وفيهم المؤمن القابل للتكليف عمليا المجاهد في سبيل الله على تفاوت بين درجات الإيمان, أسأل الله أن يجعلنا منهم.

من الدروس من هذه القصة أن النصر مرتبط بالإيمان ولا شيء سوى الإيمان, والإيمان إنما هو الانضباط في طاعة الأوامر والصبر, وهو المعبر عنه في قوله تعالى

< وَالعَصرِ ◌ إِنَّ الإِنسانَ لَفي خُسرٍ ◌ إِلَّا الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوا بِالحَقِّ وَتَواصَوا بِالصَّبرِ >

العصر: ١-٣

أسأل الله أن يربط على قلوبنا ويثبت أقدامنا وينصرنا على القوم الكافرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين